

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩ - سُورَةُ مَرْيَمَ

سميت بها لاشتغالها على نبئها الخارق . وقال المهايي : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة^(١) وآية^(٢) (وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .

وقد روى محمد بن إسحاق^(٣) ، في السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] .

(٢) [١٩ / مريم / ٧١] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ٣٥٩

من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (كَهَيْمَاصَ)

[٢] (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكْرِيَّا)

[٣] (إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا)

« كهيماص » سلف في أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا (كهيماص) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكْرِيَّا » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هذا المتلو ذكرها . و (زكريا) والدي يحيى عليهما السلام . بدل من (عبده) أو عطف بيان له . قال المهايى : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً في باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . و ذكرها لنا كبرهبة لنا ، في تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته . « إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا » ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتغال من (زكريا) والنداء في الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعده عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » أى ضعف . قال الزمخشريّ : وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد ما فيه وأصلبه . فإذا وهن كان ماوراءه أوهن . ووحدته ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفرادها . وقرئ (وَهْنٌ) بكسر الهاء وضمها « وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » قال الزمخشريّ : شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ - باشتعال النار . ثم أخرج مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب ميمزاً ولم يصف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبينتين على تشبيهين : أولاهما تصريحية تبعية في (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيض في المسودّ باشتعال النار ، كما قال ابن دريد في (مقصورته) .

إِنَّمَا تَرَىٰ رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدَّجَالِ
وَاسْتَعَلَ المَبْيُضُ فِي مَسوَدَّةٍ مِثْلَ اسْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الغَضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، في بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخيلية ، وعليه المحققون من أهل المعاني . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبّه حال الشيب بحال النار ، في بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً في وقت لم أعود منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردنى قط . وهذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعى

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عوّد عبده بالإجابة دهرًا طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبدًا . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحبّ فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استجباب الخضوع في الدعاء وإظهار النذل والمسكنة والضعف لقوله (وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ سُشْبًا) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله (وَلَمْ أَكُنْ) الخ كما قدمنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)

[٦] (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

« وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ » أي الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى في القيام بما كُنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثًا ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِنْ لَدُنْكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتبويه به لكونه مضافًا إلى الله تعالى ، وصادراً من عنده . و (آل يعقوب) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام .

« وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيًّا عندك قولاً وفعلاً .

ثم بين تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَزَكَّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا)

« يَزَكَّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا »

أى مثلاً وشبهها . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهتّم بمعصية قط .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الْكِبَرِ عِتْيًا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ

عِتْيًا » أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :

* ومن العناء رياضة الهرم *

قاله الراغب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

« قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا »

أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم طلب أولاً ، وهو وامرأته على صفة العتي والعقر ،

فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ،

ويرتدع المبطون . وإلا فتمتد زكريا أولاً وآخراً ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنى

عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران ، استعظماً لقدرة الله تعالى ، وتعجبياً منها ، واعتداداً بفعمته تعالى عليه في ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز و علا وفضله . مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له . وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أي : أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أي يكون الولد وأنتم كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

« قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً » أي علامة تدلني على تحقق المسئول ووقوع الحمل ، ليطمئن قلبي « قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أي : أن لا تقدر على تكليمهم ، حال كونك سوياً ، بلا مرض في بدنك ، ولا في لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالي » هنا ، و (الأيام) في آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجاوز أو تكتفي بأحدها عن الآخر . والنسكتة في الاكتفاء بـ (الليالي) هنا وبـ (الأيام) ثم ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول . وتلك مدنية . والليالي عندهم سابقة على الأيام . لأن شهورهم وسنتهم قمرية ، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، في التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ » أي مصلاه أو غرفته « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ » أي أشار إليهم رمزاً « أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أي صلوا لله طرفي النهار . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يٰيَحْيٰى خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ ، وَاَتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)

« يٰيَحْيٰى » استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنشاء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم^(١) بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلماذا نوه بذلك ، وبما أنعم عليه وعلى والديه . أى : قلنا (يا يحيى) « خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ » أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . « وَاَتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد في الخير ، وهو صبيٌّ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكٰوَةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)

« وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا » أى وأتيناها حناناً : وهو التحنن والتعطف والشفقة . وتنوينه للنفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه « وَزَكٰوَةً » أى طهارة من الذنوب ، وعصمة بليغة منها « وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا » بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا « أى متكبراً عاقماً لها ، أو عاصياً لربه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

« وَسَلَّمْ عَلَيْهِ » أى من الله « يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » أى ليستقبل النعيم الأبدي . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات . وفيه معنى التحية والتشريف .

وفي ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة في العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

« وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ انْتَبَدَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقى بيت المقدس . لثلاثا يشغلونها عن العبادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لثلاثا تحجبها روية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فنصوّر لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوى الخلق ، كامل الصورة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

« قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ » أى أعتصم به منك . وإنما خافته لانفرادها في خلوتها ، وظنها أنه يريد على نفسها . وفي ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالي بالاستمادة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإني عائذة به . أو فلا تتعرض لى . وإنما ذكرته بالله تعالى ، لأن المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . فخوفته أولاً بالله عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)

« قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ما توهمت . فإني رسول ربك

الذى استعذت به ، بعثنى إليك « لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا » أى لا كون سبباً فى هبته .
و (الزكى) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا
وقالت : كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجد منى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور؟
قال الزمخشري : جعل المس عبارة عن الفساح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله
تعالى (١) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) (٢) (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) والزنى ليس كذلك . وإنما
يقال فيه (فَجَرَّهِنَّ) ، وخبث بها) وما أشبه ذلك . وليس بيمين أن تراعى فيه الكنايات والآداب .
وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله (٣) (وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ) لكون هذه السورة
متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها . وقيل :
جعل المس ثم ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و (البغى) الفاجرة التى تبغى الرجال .
ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل
كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ ، وَلِنَجْعَلَوهٗ ءَايَةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا)

« قَالَ » أى الملك « كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَوهٗ ءَايَةً لِلنَّاسِ » أى

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٤٧] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع خلقهم. نخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى . وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه « وَرَحْمَةً مِنَّا » أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيمتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله « وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » من تنمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ فى فرجها . كما قال تعالى (١): (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال (٢) (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها، عن الله تعالى، ما قال، مما تقدم، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ فى جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا)

« فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

(١) [٦٦ / التحريم / ١٢] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٩١] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و (أجا) - قال الزمخشري - مقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد في بطنها للخروج « قَالَتْ يَا أَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » أى الحمل « وَكُنْتُ نَسِيماً مَّنْسِيماً » أى شيئاً تافهاً ، شأنه أن ينسى ولا يعتمد به . منسياً لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولد ، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا هتوها وهى عارفة ببراءة الساحة ، وبصد ماقرت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام - قال الزمخشري - لأنه مقام دحض ، فلما ثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به - عيباً يعاب به ويمنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)

« فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل : هو عيسى ، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلاً رفيعاً ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُزِيَ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ نُسُقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا)

« وَهُزِيَ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ نُسُقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا » أى حضراً أو أن اجتنائه . قال الزمخشري : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به ، بعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس بيدع من شأنها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكَلِمَةٍ وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَأِمَّا تَرِينَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)

« فَكَلِمَةٍ وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا » أي بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ، الموهوب بالعناية . قال الرّمحسري : أي جمعناك في السرى والرطب فائنتين : إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكَلِمَةٍ وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) أي وطبى نفسا ولا تفتمى . ورفض عنك ما أحزنك وأهملك « فَأِمَّا تَرِينَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا » أي من المحجوبين عن الحقائق بطواهر الأسباب ، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » أي لا تكلمهم في أمرك شيئاً . ولا تناديهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرت بذلك لكرهه مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع في براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أي صمتاً . وقوله (فَلَنْ أُكَلِّمَ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا)
« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا » أي عظيماً منكرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا)

« يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا » استئناف

لتجديد التعبير ، وتأکید التوبيخ ، وتقرير لكون ما جاءت به فريا . و (هارون) هو النبيّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله في الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى (المشابه) كثيرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْتَارِ صَبِيًّا)

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا » منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْتَارِ صَبِيًّا »

ولم يعهد تكليم عاقل لصبيّ في المهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)

[٣١] (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

« قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى

عن الولد ، رداً على من زعم ربوبيته ونبوته « ءَاتَانِي الْكِتَابَ » أي الإنجيل « وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ » أي كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربي

لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضي

في الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم ، أو جعل الآتي ، لا محالة ، كأنه وجد

« وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » أي أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

[٣٣] (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

[٣٤] (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٣٥] (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحٰنَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ)

[٣٦] (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

«وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» أى مستكبراً عن طاعته وأمره «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ» أى الذى فصلت نعمته الجليلة وخصائصه الباهرة «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم ، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه «قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ» أى : ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى^(١) (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ) ثم أشار إلى تنمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٠ و ٥٩]

تنبيهات في فوائد هذه القصة

الأول - لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ، ولدًا زكيًّا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرها في آل عمران ، وهنما ، وفي سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و (مريم) هي بنت عمران . من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران . وأنها نذرت لها محررة للعبادة . وأنه تقبلها ربه بقبول حسن . وأنتها نياتًا حسنًا فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت في كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم في سورة آل عمران .

الثاني - استدل بقوله تعالى ^(١): (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) من قال بنبوة مريم . واستدل بقوله تعالى عنها ^(٢) . (يَلْمِزْتَنِي مِمَّا قَبْلَ هَذَا) على جواز تمنى المنون لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى ^(٣) . (وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجِدْعَ الْفُجْرَةَ) على التسبب في الرزق ، وتكافؤ الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه
وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
إليها . ولكن كل شيء له سبب

وفي الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى :
(فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ) (بَدَا) (فَلَمَّا أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا) على أن الخائف (لا يتكلم أو لا يكلم
فلانا) لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشري ، قال :

(١) [١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [١٩ / مريم / ٢٣ . (٣) [١٩ / مريم / ٢٥] .

ومن أذل الناس سفيهه لم يجد مسافها . وفي قوله تعالى (مَا كَانَ أَبُوكِ أُمْرًا سَوْءًا) معنى قولهم في المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفسح .

الثالث - نقل الرازى عن القاضى فى قوله تعالى^(١) : (وَأَسَلَّمْهُ عَلَيَّ) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى . ولا بد فى الأنبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هى هذه الأحوال الثلاثة : وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمحافات فى كل الأحوال .

الرابع - قال القاشانى : وإنما تمثل لها بشراً سوى الخلق حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيال فى الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتنزى كما يقع فى المنام من الاحتلام وتنفذ نطقها فى الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة ، لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما فى النوم . فكل ما يرى فى الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة فى اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التى لها بالأرواح القدسية ، يسرى فى النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نقطة واحدة . لأنه ثبت فى العلوم الطبيعية أن منى الذكر فى تسكون الولد، بمنزلة الإنفحة فى الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن، أى العقدم منى الذكر والانفقاد من منى الأنثى . لا على معنى أن منى الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنى الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة فى منى الذكر أقوى . والمنعقدة فى منى الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحد شيئاً واحداً . ولم ينعقد منى الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

(١) [١٩ / مريم / ٣٣] .

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المنى المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى يفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قوياً فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى الكلية اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منى الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الولد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وبغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحاني ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضب بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) فى اللوح مقدرآ فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأت إليه بقوله : (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فدنا منها فنفخ فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا . كالغلمة مثلاً والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعل لوجوده كما قال : (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس - التمثيل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر .

قال إمام الحرمين : تمثل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعد .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى في الجسد حياً . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً ، بل عبادة أجزاها الله تعالى في بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة .

وقال البلقيني : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكاه الأصلي . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن ، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفث يحصل له صورة كبيرة ، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يحاطبه . والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرأى فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر في فتح الباري .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحط بكنهه . فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم عليه السلام فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة .

السادس - قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فخرفه اليهود إلى (عيسو) تهـ كما فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنى على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ

يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَأُخْتَلِفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ » أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى ، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله و كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى في أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه . وهذا من فضله تعالى ومنه « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى بالذين كفروا ، المختلفين . عبر عنهم بالموصول إيداناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعملة الحكم . وفى (مشهَد) ستة أوجه . لأنه مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من (الشهود) أى الحضور أو (الشهادة) . وهذا معنى قول الزمخشريّ : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل : معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه . فعظمه لعظم ما فيه أيضاً . كقوله (١) « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه

أن أسمعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صاعمياً . والآية كقوله تعالى (٢) « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا » الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(١) [١٨ / الكهف / ٥] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشري : أوقع الظاهر
أعنى (الظالمين) موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ،
حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أوّل التعجب فى الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ،
لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام ما لا يدرك سببه .
ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث
لا ينفهم ذلك . فهى كقوله تعالى ^(١) (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)
أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين فى تأويل ما يشترك فى الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات
المروية . وطريقة الساف المحققين إثبات ماورد به السمع مع نفي التشبيه . إذ لا اتحاد بين صفات
الخالق وصفات المخلوق . فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذى يجب أن يكون عليه جل جلاله .
فما يقدر فى حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون فى حقه تعالى
مستلزماً لذلك . كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فيما ، يستلزم من النقص والحاجة ،
ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فيما ، يستلزم احتياجاً إلى خالق
يجعلنا موجودين . والله منزّه فى وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا .
مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتي لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ،
الغنى له أمر ذاتي لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حتى قيوم واجب الوجود ، ونحن
بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال ، من العلم
والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا . فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه في حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون في حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ما قرره الإمام تقي الدين بن تيمية في خلال بعض فتاويه . وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكمية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

«وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كل شئ إلى ما صار إليه مخلداً فيه « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة « وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون به اليوم وسيماينونه . ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا في توحيد الخالص ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٤٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)

« وَأَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا » بليغ التصديق بما يجب لله من الوجدانية والتنزيه « نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ » أى مُتَلَطِّفًا في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » أى أى فلا يدفع ضرراً ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن مناج ، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل. لثلايركب متن المكابرة والعناد. ولا ينسكب، بالسكينة، عن محجة الرشاد. حيث طاب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم. مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام، والإيناع العام. الخالق الرازق المحي المميت المثيب المعاقب. ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لداعية صحيحة وغرض صحيح. والشيء لو كان حياً مميماً سمياً بصيراً، قادراً على النفع والضرر، مطيقاً بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكناً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته. وإن كان أشرف الخلائق. لما يراه مثله في الحاجة والانتقاد للقدرة القاهرة الواجبة. فما ظنك بجهد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر؟.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) « يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا » أى معتدلاً لإفراط فيه بعبادة من لا يستحق، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق، وكذا في باب الأخلاق والأعمال. قال المهايى: أى وإن كان حق الابن اتباع الأب في العرف، لكنه باطل. لأن الحق اتباع الصواب. قال الزمخشري: ننى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفاً. فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق. ولكنه قال: إن معنى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى. فلا تستنكف. وهب أنى وإياك فى مسير، وعندى معرفة يالهداية دونك، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتنتيه.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)

« يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » .

ثلث عليه السلام بتثبيطه ونهييه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرّة ، مستجلب لضرر عظيم ، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان . لما أنه الأمر به والمسؤل له ، وقوله : (إِنَّ الشَّيْطَانَ) الخ تعليل لموجب النهي وتأكيده ، ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم . ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص . والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير . والافتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جزاياته ، لأنه ملاكها . والتعرض لعنوان الرحمانية ، لإظهار كمال شناعة عصيانه . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

وَلِيًّا)

« يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ » لكونك عصيته وواليت عدوه ، فيقطع رحمته عنك ، كما قطعها عن الشيطان « فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » أى مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه .

قال الزمخشري : رَبَّعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَخْوِيفِهِ سُوءَ الْعَاقِبَةِ ، وَبِمَا يَجْرَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّبَعَةِ وَالْوَبَالِ . وَلَمْ يَخْلُ ذَلِكَ مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ ، حَيْثُ لَمْ يَصْرَحْ بِأَنَّ الْعِقَابَ لَاحِقٌ لَهُ ، وَأَنَّ الْعَذَابَ لَاصِقٌ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ (أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فَذَكَرَ الْخَوْفَ وَالْمَسَّ وَنَكَرَ الْعَذَابَ . وَجَعَلَ وَلايَةَ الشَّيْطَانِ وَدَخُولَهُ فِي جَمَلَةِ أَشْيَاعِهِ وَأَوْلِيَاءِهِ ، أَكْبَرَ مِنَ الْعَذَابِ . وَصَدَّرَ كُلَّ نَصِيحَةٍ مِنَ النَّصَاحِ الْأَرْبَعِ بِقَوْلِهِ (يَا بَتِ) تَوْسِلاً إِلَيْهِ وَاسْتِعْطَافاً . وَقَوْلُهُ تَعَالَى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ] عَنْ ءِالِهَتِي يَا بَرَاهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ ، وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا)

« قَالَ » أى أبوه ، مصرّاً على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءِالِهَتِي يَا بَرَاهِيمُ » أى : أعرض ومنصرف أنت عنها . وإنما قدم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهم عنده . وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلاً عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسليمة للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمك بالحجارة « وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا » أى تباعد عنى زماناً طويلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ سَلِّمْ عَلَيْهِمْ ، سَأُتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُوَ كَانَ بِي حَفِيًّا)

« قَالَ سَلِّمْ عَلَيْهِمْ سَأُتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُوَ كَانَ بِي حَفِيًّا » أى مبالغة فى اللطف بى . وفى جوابه بقوله عليه السلام (سَلِّمْ عَلَيْهِمْ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى (١) (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمُوا) أى لا أصيبك بمكروه بعد . ولكن سادعو ربى أن يغفر لك . كما قال (٢) (وَأَغْفِرْ لِأَبِي) قال الزمخشري : وفى الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعاه بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى (الإكليل) : استدلل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٦] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبني المسجد الحرام . وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق في قوله (١) (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقد استغفر المسلمون لقرابتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . حتى أنزل الله تعالى (٢) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) إلى قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) يعني إلا في هذا القول ، فلا تتأسوا به . ثم بين تعالى أن إبراهيم أقطع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى (٣) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)

« وَأَعْتَرِلَكُمْ » أى أتباعك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشري : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائلها . ومنه قوله عليه السلام (٤) : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى (٥) (فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٦٠ / المتحنه / ٤] . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣ و١١٤] .

(٤) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٦ - حدثنا

هناد، عن النعمان بن بشير . (٥) [١٩ / مريم / ٤٩] .

« وَأَدْعُوا رَبِّي » أى عبده وحده « عَسَىٰ أَن يَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا » أى خائبًا ضائع السعى . وفيه تمريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة (عَسَىٰ) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَلَمَّا أُعْتِرَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

« فَلَمَّا أُعْتِرَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقه من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا » أى ما عُرف فيهم من النبوة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة « وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » أى ثناءً حسنًا . عبر بـ (اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهى العطيّة . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن مجاهدتهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)

[٥٢] (وَنَسُدُّ نَسَهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)

« وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ » إذ هو « كَانَ مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتح ه . أى أخلصه الله ، أى اصطفاه ، كما قال (١)
 (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ) « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
 الْأَيْمَنِ » أى من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فأرآها
 تلوح فقصدها فوجدها ثمة . فنودى عندها « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » أى مناجياً ، أى كليماً .
 إذ كلفاه بلا واسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره فى أداء الرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ، إِنَّهُ وَكَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)

[٥٥] (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)

« وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فصل ذكره
 عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلاً . وقوله « إِنَّهُ وَكَانَ
 صَادِقَ الْوَعْدِ » لتلليل للأمر . وإيراده عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية
 الأنبياء ، تشریفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر
 على الذبح ، فوقى به حيث قال (٢) (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) وهذا أعظم
 ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرحت به الأخبار .
 « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ » أى كان يبدأ أهله فى الأمر
 بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٤] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] .

الْأَقْرَبِينَ) (١) (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ) (٢) (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) (٣) ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الديني أولى. أفاده الزمخشري. «وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرَضِيًّا» أى لا تصافه بالنعوت الجميلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ وَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٥٧] (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

«وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ وَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى . فالعلو معنوى . أو رفعه بجسده حياً إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرَجَلَاكَ فِي عَافِيَةٍ

انتهى . ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين (٤) عن أنس فى حديث المعراج؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة . وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب ، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٢] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)

(سجدة)

«أُولَئِكَ» إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام . وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل . وقوله تعالى : «الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي بفنون النعم الدينية والدنيوية «مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا» أي هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا» أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علو الرتبة . وسمو الزلفى عنده تعالى . وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم : أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه قرأ سورة مريم فسجد . وقال : هذا السجود فأين البُكْيُ .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائلين بحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سيفالهم ، بقوله سبحانه :

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير (طبعة الحلبي)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسنجود والأذكار، المستدعية للبقاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ » أى فاتوا بما يناق البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا » أى شرًّا . قال الزمخشري : كل شر عند العرب غيٌّ ، وكل خير رشاد . قال المرفقش (١) :

فن يلقَ خيراً يحمده الناسُ أمرهُ ومن يَغوَ لا يَعدُمُ على الغيِّ لأَماً

أى من يفعل خيراً، يحمده الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال ، وبالغي الفقر . أى ومن يفتقر . ومنه (٢) القائل :

والناس من يلقَ خيراً قائلون له ما يشتهي . ولأَمّ الخَطِيءُ الهَبْلُ

أى الشكل . ويجوز أن يكون المعنى جزاء غيِّ . كقوله تعالى (٣) (يَلْقَى أَثَامًا) أى شرًّا وعقابًا . فأطلق عليه كما أطلق الغيِّ على مجازاته المسببة عنه ، مجازاً . أو (غِيًّا) ضلالاً عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من الفضلية السادسة والخمسين . ومطلعها :

أَلَا يَا اسْمَى . لَا صُرْمَ لِي الْيَوْمَ فَاطِمَا وَلَا أَبَدًا ، مَا دَامَ وَصْلِكَ دَائِمًا

(٢) قائله القطامى . أجد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلِمَ أَيُّهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَلَيْتْ ، وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّوَلُ

وطال طولك ، أى عمرك . (٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا)

[٦١] (جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) «إِلَّا مَنْ تَابَ» أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات «وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا * جَنَّتِ عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ» متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار . أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم ، أفاده أبو السعود «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا» أى لا يخلفه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

[٦٣] (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)

«لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا» أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشري رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتباعه . حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها . وما أحسن قوله (١) سبحانه : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُنَّا أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (٢) نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنيننا .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

ومعنى (إِلَّا سَلَمًا) أى تسليماً . وهو تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال (١) : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا * إِلَّا قِيلاً سَلَمًا سَلَمًا) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، السرودة فى مواضع شتى من آى القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم - عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردّاً لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره ، تسليمة له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على ما زعمه هؤلاء الخلف . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ وَمَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

«وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ وَمَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى ينسى شيئاً ما ، بل لا يفيض علماً ولا ينزل ملكاً إلا للحكمة يستعملها الحال ، أى فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركة تعالى لك وتوديعه إياك . وفى إعادة اسم (الرب) العرب عن التبليغ إلى السكال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعملة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

«رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أى من التوابع والنجيات والسحب وغيره ذلك .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة ، من أن السموات عنى بها الكواكب ، والأرض كوكب منها . قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من يديه ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ » أى اثبت لها على الدوام . وقوله « هَلْ تَعْلَمُ لَهُو سَمِيًّا » أى مثلاً وكفوفاً ، فتلفتت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك . والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أى إذا صح أن لا مثل له ، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بدُّ من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أى يقول بطريق الإنكار

والاستبعاد : أأخرج حياً بعد ما لبثت فى القبر مدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)

« أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » أى قبل جعله تراباً

ونطفة . وكان عدماً صرفاً لا وجود له فى الأعيان . فلا تبهمة إعادته .

قال أبو السعود : وفى الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعى

التفكير فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور . وهو السرّ

فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أى ما أعجب الإنسان فى إنكاره وعدم

تذكره لما ذكر ، وهو الذى أعطى العقل لينظر فى العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات

والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهِنَّ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغوهم وأضلوهم عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهِنَّ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع (جث) . من (جثا) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى^(١) (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)

« ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى النار، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن ، الذى رحمه بإزالة الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل ، (عتياً) أى جراءة، بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاة به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا)

« ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا » وهم المنزعون . فإنهم أولى الشيع . إذ ضلوا وأضلوا ، لأجل لذات الدنيا وشهواتها . فصاروا أولى بالصلى بها . فيخصون بعداب مضاعف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يردّها . « كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (مَنْ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

« ثم » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشريّ : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثوّ حوالها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجايبهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظاً من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً ووارداً ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مخفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً^(١) عنهم :
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) وقال قوم نوح^(٢)
(أَنْوَمِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ) وقال تعالى^(٣) : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ يَبِينُنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .
وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْمًا وَرِيًّا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْمًا » أى متاعاً « وَرِيًّا » أى منظرأً وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أعنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى ^(١) عن قوم فرعون المغرقيين (كَمْ تَرَ كُوفًا مِن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) و(رِيًّا) فعل بمعنى مفعول كالطحن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ

إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)

« قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبل ، ومن شا كلهم ، (فليمدد له الرحمن) أى يمد له ويعمله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة ، لتقطع العاذير . كما ينبى عنه قوله تعالى ^(٢) : (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّمَا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال . أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلتقى ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بفتنة . وقد بين سبحانه غاية المد بقوله :

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا » أى فئة وأنصاراً .

(١) [٤٤/الدخان/٢٥ و٢٦] . (٢) [٣٥/فاطر/٣٧] . (٣) [٣/آل عمران/١٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)

« وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ » أى الأعمال التي تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا » أى مرجعا . وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ يُولَدَا)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ » أى فى الآخرة « مَا لَمْ يُولَدَا » أى انظر إلى هذا القائل المجترى على الغيب ، ما أكرهه !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمٍ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

« أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمٍ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » أى بذلك، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا)

[٨٠] (وَنَزِّنُ لَهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمواخذة به « وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا » أى نزاع عنه ما آتينا من مال وولد ، جزاء لاستهزائه « وَنَزِّنُ لَهُ مَا يَقُولُ »

فلا يقيمان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فإ يجدى عليه تمنيه وتأليه .

وقد روى البخارى^(١) : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت قينا - حدادًا - فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفًا ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد . فأتى ما لا وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيْهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيْهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» أى ليمتززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عز وجل ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

«كَلَّا» أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا «سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ» أى ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة «وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» أى يريدون إهلاكهم، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى^(٢) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٢٩ - باب ذكر القين والحداد ،

حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [٤٦/الأحقاف/٦٥٥] . (٣) [١٦/النحل/٨٦] .

فَأَقْوُوا إِلَيْهِمْ أُنْقُولَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (قيل : المراد بالآلهة من عُبدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَوْ يَضِلُّهُمْ

«أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ» أى بأن سَلَطْنَاهم عليهم ومكناهم من إضلالهم . أو قيصناهم لهم يغلبون عليهم « تَوْذُهُمْ أَوْ يَضِلُّهُمْ أَوْ يَضِلُّهُمْ » أى تغريزهم وتهيجهم على المعاصى ، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهيجاً شديداً .

قال الزمخشري: الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهيج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاولهم وملاحمتهم ومعاندتهم للرسول ، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وانهما كهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسول لهم . فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم . و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا » لتعميل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما تؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى (١) (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ) .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقتله لتفضيه وفنائه ، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما نقد) ولا ينافي هذا ما مرّ من أنه يمد لمن كان في الضلالة . أى يطول . لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم . وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله . والله درالقائل :

إن الحبيب من الأحباب مختلسٌ لا يمنع الموت بوابه ولا حرسٌ
وكيف يفرح بالدينا ولذتها فتى يُعدّ عليه اللفظ والنفسُ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا)

« يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العطاء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، الزور والزائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا)

« وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا » أى عطاشا . وفي ذكرهم بالنسوق إشعار بإهانتهم واستخفافهم . كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد : الذهاب إلى الماء ، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

« لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقدم ذكرها في قوله^(١) (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) ردّ على عابديهم في دعواهم

(١) [١٩ / مريم / ٨١] .

أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر . يقال: أخذت الإذن في كذا واتخذته بمعنى . من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لا يشفع إلا للأمور بالشفاعة، المأذون له فيها . وتعضده مواضع في التنزيل ^(١) « وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى » ^(٢) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ) ^(٣) (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ وَقَوْلًا) ونحو هذه الآية قوله تعالى ^(٤) (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ولما قرر تعالى في هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، عطف عليه حكاية جنابيتهم من دعوى البنوة له، مهولا لأمرها . وكذا اجنابية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابناً أو بنتاً له ، تعالى وتقدس - عطف قصته على قصته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)

[٨٩] (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » أى عظيماً منكراً . وفي رد مقالتهم

وتحويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المصحح عن غاية التشنيع، والتسجيل

عليهم بنهاية الوقاحة والجرأة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] .

(٤) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٠٩] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٩٠] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)

[٩١] (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)

[٩٢] (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[٩٣] (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا)

« تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشققن « وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ » أى لأن « دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانى الأحدى أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفاء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج . وماله مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والنذل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)

[٩٥] (وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)

« لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الأتباع والأنصار ، وعمن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوى الكفرة ، تأثره بحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى يفرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تكسب الود . كذا قالوا فى تأويله . وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون . قال : والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده . ومن كلامهم : وددت لو كان كذا . أى أحببت . فعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم : وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها - كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى ييغضه الكفار وقد ييغضه كثير من المسلمين ؟ وثانيها - أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر ، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها - أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الآخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازى التويه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ ۖ قَوْمًا لَّدَا)

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، بالجنة « وَتُنذِرَ بِهِ ۖ قَوْمًا لَّدَا » أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش . فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل ، لا يقبلون الحق (والدد) شدة الخصومة . والباء فى قوله (بِلِسَانِكَ) بمعنى (على) . أى على لفتك . أو ضمن (التيسير) معنى (الإزال) أى يسرنا القرآن ، منزلين له بلغتك ، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه . قال الزمخشرى : هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلى هذا المنزل ، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أى فإفاء لتعميل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازى : بين به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيئ وهو اللدد . لأن الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ » أى قوم لُدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ » أى تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أى صوتا خفياً . والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلصت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .